الظاهريات ومحاولة إعادة بناء علم أصول الفقه في مشروع (التراث والتجديد)

د. جيلالي بوبكر(*)

تقديم

ليس من اليسر وفي وقت قصير يمكن طرح ومناقشة جميع مضامين ودلالات و إيحاءات محاولة إعادة بناء علم أصول الفقه في المصنف الأصولي المعاصر «من النص إلى االواقع» بجزئية « تكوين النص» و«بنية النص» في مشروع «التراث والتجديد» لحسن حنفي، لما تحتويه هذه المحاولة من تحليلات عميقة وتفصيلات دقيقة وكمّ هائل من المتون الأصولية وكثرة الهوامش وتعدد المناهج والنتائج، فأكون مختصرا ومركزا على صميم موضوع الدراسة وصلبه، وهو الظاهريات كفلسفة وكمنهج وكعلم في صلتها بالمحاولة، و إن كانت الظاهراتية في مشروع «التراث والتجديد» عامة وفي محاولات إعادة بناء العلوم التراثية العقلية النقلية تُعرف بمنهج تحليل الخبرات الشعورية باعتبارها تجارب شعورية فردية حيّة معاشة في الزمان والمكان، ومحددة في التاريخ، يمكن دراستها والإلمام بها، وعلى هذا الأساس نطرح الأسئلة التالية: لماذا محاولة إعادة بناء علم أصول الفقه في مشروع «التراث والتجديد»؟، لماذا منهج تحليل الخبرات الشعورية الحيّة بالذات؟، وكيف طبق في المحاولة؟، وماذا نتج عن تطبيق الظاهريات على علم أصول الفقه؟، ما قيمة محاولة «حسن حنفي» في إعادة بناء علم أصول الفقه؟.

١- المحاولة: السياق والهدف

ما دام التراث مخزون نفسي في الجماهير وهو مسؤولية فردية وجماعية، شخصية وقومية

(*) أستاذ الفلسفة بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة حسيبة بن بو علي الشلف.

ليس هو الأنا بل يحميها ولا يرفض الآخر بل يشاركه الحياة بإيجابية وفعّالية، ليس هو الدين بل الدين جزء منه، الواحد منها يحمي الآخر ويفعّله، التراث ينمو ويزدهر بالعلم حينما يلتزم الباحث في التراث والالتزام شرط العلم فالأيديولوجية لا تضاد العلم بل تتحد معه في الوعي القومي العربي والإسلامي وفي الوعي القومي لشعوب العالم المتخلف. هذه كلّها تمثل دوافع إعادة بناء التراث العربي الإسلامي بشكل عام والتراث الفلسفي بشكل خاص «علومه وأبنيته وحلوله واختياراته وبدائلها الممكنة هي تغير الظروف كلية من عصر إلى عصر، ومن فترة إلى فترة... هناك إذن فترتان متمايزتان في تراثنا القديم وفي حضارتنا الإسلامية، الأولى الفترة القديمة والثانية الفترة الحديثة، الأولى اكتملت فيها الحضارة في دورتها الأولى والثانية ما زلنا نشاهدها... الأولى تعادل في التراث الغربي العصر الوسيط فيه والثانية تعادل عصوره الحديثة وعلى هذا يكون التقابل بين التراثين، التراث القديم والتراث الغربي محددا جدل الأنا والآخر، عصر الازدهار والاكتمال لدينا في الفترة الأولى هو العصر الوسيط الأوروبي، وعصر التدوين والشروح والملخصات أي التوقف والاجترار في العصور الغربية الحديثة. فليس تراثنا القديم هو العصر الوسيط إسقاط الآخر على الأنا، كما أننا لا نعيش في العصور الغربية الحديثة إسقاط الأنا على الآخر.»[١]

كما أنّ محاولة إعادة بناء التراث تصبح ضرورة ملحّة لأن مجتمعاتنا النامية تراثية والنموذج الاجتماعي التراثي يكون في نمطه يعاني من عيوب رئيسية كأن يؤخذ التراث فيه غاية في ذاته وليس وسيلة لتقدم الشعوب ونهضة المجتمعات، ويكون التراث منفصلاً عن الواقع وليس محدداً له وموجهاً إيّاه لأن التراث فكر وواقع معاً، ويؤخذ التراث كله أو يُلغى كله لا يقبل التجزئة أو الانتقائية فهو «حقيقة أبدية لا تتطور أو تتغير ولا يخضع لتأويل أو تفسير أو وجهة نظر يشمل الزمان والمكان ويحتويهما فيه فلا فرق بين الماضي والحاضر والمستقبل ولا وجود لمراحل التاريخ أو نوعية المجتمعات أو خصوصيات الشعوب وبالتالي تمّ التنكر للحاضر كلية.»[٢] والواقع برمته فاسد لا يجوز تطويره بل هدمه من الأساس ويبدأ البناء من جديد. وبالمقابل نجد النمط اللاتراثي يأتي كرد فعل على النمط التراثي وهو نمط أو نموذج يقطع صلته بالتراث القديم لبناء الجديد، «على أسس من العلم والمعرفة والجهد الإنساني الخالص بعد

(١) حسن حنفي: دراسات فلسفية، ص١٠٩ - ١١٠.
(٢) المرجع نفسه: ص١٣٧.

اكتشاف عورات التراث وعدم ثباته أمام العلم الجديد فالتقدم نحو الجديد مرهون بالتخلص من القديم وهو نمط عيوبه كثيرة فالتغيير لديه سطحي والتقدم في المظاهر مما أدّى إلى انفصام الشخصية الوطنية وسيطرة الأقلية وتراث الأقلية وانعزال الطبقة الثورية وما ينتج عن ذلك من مخاطر سياسية واقتصادية واجتماعية، الأمر الذي يستدعي قيام النمط الثالث وهو نمط أو نموذج إعادة بناء التراث و إحيائه وبعثه تطبيقاً لمشروع «التراث والتجديد». فإذا كان النمط التراثي يضحي بالتغيير الاجتماعي من أجل المحافظة على التراث وكان النمط اللاتراثي يضحي بالتراث من أجل التغيير الاجتماعي، فإن تجديد التراث أو إحيائه أو إعادة بنائه طبقاً لحاجات العصر هو الذي يحفظ من التراث دوافعه على التقدم ويقضي على معوقاته وهو القادر على إحداث التغيير الاجتماعي بطريقة أرسخ وأبقى وأحفظ له في التاريخ من الانتكاسات والردّة وحركات النكوص.»[1]

وإذا كان التراث في المجتمعات التراثية النامية ليس ديناً مقدساً ولا بناءًا صورياً ولا نصوصاً محفوظة أو كتب صفراء فهو سلطة تقوم في مقابل سلطة العقل تمنح الإنسان تصورات عن العالم وعن السلوك وقيّمه ويشكل واحدا من مقومات الشعوب النامية في وجودها ويمثل عامل تنميتها وازدهارها في أصولها التاريخية، ولما كان التراث كذلك فهو مستعمل من قبل السلطة ومن قبل المعارضة في المجتمعات الديمقراطية كما يستعمل من قبل الحاكم والمحكوم والقاهر والمقهور في المجتمعات الطبيعية. كل منهما يجد في التراث ما يؤيده. ويؤكد 'حسن حنفي' على ضرورة الاهتمام بالتراث دراسة وبحثاً واندماجاً متبادلاً بين الذات الدارسة والموضوع المدروس، والتزاماً من قبل البحث لأن المستشرق يرصد التراث من حيث حركته التاريخية فيفقد الحياة والموضوعية. «وبالتالي كان علينا تطويره وتغييره بل وقلبه رأساً على عقب، ومن هنا كان التراث واجب وطني والنواح على سلبياته مجرد بكاء وصراخ وعويل لا يجدي. فالسلبيات يمكن القضاء عليها بإنتاج تراث آخر أو تحويلها إلى إيجابيات بفعل سياسي مضاد. كما أن التغني بإيجابياته إعجاب بتراث الآباء والأجداد لا قيمة له إلا بمقدار مساهمة هذه الإيجابيات في حل قضايا العصر الأساسية وقبول تحدياته الرئيسية. فما الفائدة في التغني بالعقل في مجتمع غيبي أو الفخر بالعدالة الاجتماعية والمساواة في مجتمع الفقر والفشل والبؤس والشقاء أو الاعتزاز بالحرية في مجتمع القهر والتسلط تفتح فيه السجون والمعتقلات أكثر مما

(١) المرجع نفسه: ص١٤٣.

تفتح فيه المدارس ودور العلم أو التشدّق بالوحدة في أمة تقطعت أوصالها وتفرقت شيّعاً يحارب بعضها بعضاً.»[١] «كل حزب بما لديهم فرحون.»[٢]

فقراءة التراث ونقده و إعادة صياغته ومحاولة إعادة بنائه وفق ما تتطلبه حاجات العصر هوالكفيل الوحيد بتوظيف التراث إيجابياً وبفعّالية في بناء الحاضر والتطلع للمستقبل وهي مهمة «مشروع التراث» متجاوزا النمط التراثي والنموذج اللاتّراثي.

إنّ ضرورة التجديد في ارتباطه بالمفاهيم التجديدية الأخرى لا استغناء عنها في حياة الفرد والمجتمع داخل التاريخ ولبناء النهضة والحضارة خاصة إذا عرفت حياة الأمة مثل الأمة الإسلامية والعربية ظاهرة التكور لا التطور، وهي أمّة تملك من الإمكانات ما يمنحها الأهلية الحضارية والريادة مادياً ومعنوياً، فلها من الماضي والتاريخ صفحات مشرقة وبيضاء وهو تراثها العتيق، ولها من الثروات المادية الكثير، لكن واقعها فاسد مادياً ومعنوياً، لا هي استطاعت أن تحافظ على تراثها وقيّمها وماضيها بالرغم من دعوات الأصالة والمحافظة والتقليد وهو موقف التيار التراثي ولا هي استطاعت أن تعيش عصرها وتعيش ما فيه من تقدم علمي وتكنولوجي وفكري بالرغم من دعوات الحداثة والتغريب وهو موقف التيار اللاتراثي، وعجزت عن التوفيق بين الاثنين في وقت مطالبة بعدم التفريط في الماضي وبعدم التفريط بالعصر وظروفه خاصة وهي أمة تراثية، التراث حيّ فيها في مجال الشعور القومي والفردي وفي داخل اللاشعور القومي والفردي. وأمام تيار التواصل مع التراث إلى درجة الانقطاع عن العصر وتيار التواصل مع العصر إلى درجة الانقطاع عن التراث وتيار التوفيق أو التلفيق بين التراث والعصر بغير إيجابية وفعّالية لا من جهة التراث ولا من قبل العصر، يقوم مشروع'التراث والتجديد' لطرح قضية التراث كأساس وشرط وقضية التجديد كمنهج وميدان وعلم داخل مشروع حضاري قومي من شأنه يحل أزمة العالم العربي والإسلامي المعاصر بأسلوب علمي التزامي بعيداً عن الأحادية في المنظور في المنهج والدراسة والنتائج، فهو مشروع يؤسس للتغيير الاجتماعي من خلال منهج أو نظرة تجمع بين التراث والتجديد بكيفية جديدة لا تسمح بسيطرة التراث بمفرده أو سيطرة العصر بمفرده أو بسيطرة التغليف والتلفيق مثلما الحال في النماذج السائدة والمشاريع القائمة والتي لم تستطع حتى الآن تجاوز وضعية التخلف وأزمة التحضر في العالم العربي الإسلامي.

---

(١) المرجع نفسه: ص١٥٦.

(٢) سورة الروم: الآية ٣٢.

في كثير من الأحيان تكون المشكلة في اتجاهات الفكر العربي والإسلامي المعاصر في المفاهيم لذا يؤكد صاحب مشروع «التراث والتجديد» على ضبط مفهومي التراث والتجديد. إن نقطة الانطلاق في المشروع هو التراث ليس الغرض من ذلك تجديده لأجل المحافظة عليه وعلى أصالته، «بل من أجل المحافظة على الاستمرار في الثقافة الوطنية، وتأصيل الحاضر، ودفعه نحو التقدم، والمشاركة في قضايا التغيير الاجتماعي. التراث هو نقطة البداية كمسؤولية ثقافية وقومية، والتجديد هو إعادة تفسير التراث طبقاً لحاجات العصر، فالقديم يسبق الجديد، والأصالة أساس المعاصرة والوسيلة تؤدي إلى الغاية التراث هو الوسيلة، والتجديد هو الغاية، وهي المساهمة في تطوير الواقع، وحل مشكلاته، والقضاء على أسباب معوقاته وفتح مغاليقه التي تمنع أيّة محاولة لتطويره.»[١]

فالتجديد في ارتباطه بالتراث يجعل التراث ليس هو غاية في ذاته أو قيمة في ذاته، مجرد متحف للأفكار نتغنى ونفتخر بها بل مادة حيّة تعطي النظرية العلمية في تفسير الواقع والسعي إلى تطويره، ونظرية للعمل ومحددا للعمل ومحددا وموجهاً لسلوك الإنسان ومادة قومية تُكتشف وتُستثمر لإعادة بناء الإنسان وعلاقته بالأرض، فالتخلف بمختلف مظاهره وفي جميع قطاعات الحياة يعود إلى غياب مشروع حضاري قومي محكم و إلى غياب ثورة إنسانية في الوعي والفكر، والثقافة سابقة على الثورة في الزراعة أو الصناعة أو غيرها، «فالنهضة سابقة على التنمية وشرط لها والإصلاح سابق على النهضة وشرط لها والقفز إلى التنمية هو تحقيق لمظاهر التقدم دون مضمونه وشرطه. «التراث والتجديد» إذن يحاول تأسيس قضايا التغير الاجتماعي على نحو طبيعي وفي منظور تاريخي، يبدأ بالأساس والشرط، قبل المؤسس والمشروط.»[٢]

«من النص إلى الواقع» عنوان الكتاب، وصيحة لمفكر يُعد واحدا من المهتمين بالشأن الفكري والثقافي والحضاري في العالم العربي والإسلامي المعاصر، ناقش ولازال يناقش في حواراته وكتاباته وفي الندوات والمنتديات والملتقيات التي يحضرها قضية إعادة بناء العلوم التراثية في مجتمع تراثي تاريخي يعيش على التراث ولا يتخلى عنه، كما يدعو إلى تجديدها وليس فقط الاكتفاء بقراءتها و إعادة صياغتها، لا على سبيل إحيائها والمحافظة عليها والاعتزاز بها لأنها تمثل ماضي الأمة الحضاري وهويتها التاريخية بل على سبيل توظيفها لتساهم بفعّالية

(١) حسن حنفي: التراث والتجديد، ص١٣.
(٢) المرجع نفسه: ص١٣ - ١٤.

وبإيجابية في تغيير وتطوير الواقع وفق مقتضياته ومتطلباته وتحدياته، وهو واقع يحيا على التراث ويعيش بالوافد وهو الحضارة الغربية ومنتجاتها الفكرية والمادية في سياقها التاريخي وفي امتدادها في الماضي، الأمر الذي جعل الواقع المعاصر للعالم العربي والإسلامي يعيش أزمة متعددة الجوانب، وتزداد تفاقما وتعقيدا من وقت إلى آخر، وذلك نتيجة لغياب موقف حضاري تجاه التراث ونحو الوافد وإزاء الواقع، فمشكلة التراث والتجديد هي المشكلة الأم والمشكلة المحور، ومشكلة جدل الأنا والآخر وهي مشكلة فكر وسياسة واقتصاد، ومشكلة الموقف من الواقع، أو كما يسميه «حسن حنفي» غياب نظرية التفسير أي نظرية تفسير الواقع، هذه المشكلات هي المسئولة عن أزمة التخلف في جميع مستوياته في واقعنا المعاصر وهي أزمة حضارية، تحتاج في معالجتها جذرياً إلى موقف حضاري من خلال مشروع حضاري قومي وإنساني يشتغل على التراث والوافد والواقع. وهو مشروع يهتم بأبعاد الوعي الحضاري تاريخياً وزمنياً وواقعياً، الحاضر والماضي والمستقبل من جهة والموروث والوافد والواقع من جهة ثانية. مشروع «التراث والتجديد» دعا إليه صاحبه منذ أن بدأ يشتغل بالفلسفة وبالفكر الفلسفي العربي والإسلامي القديم والحديث والمعاصر في مقابل الفكر الغربي والحضارة الحديثة والمعاصرة الذي درسه وتعمَق في دراسته، وطرح إشكالية تخلف وتأخر العالم العربي والإسلامي حضارياً واستمرار هذا التخلف بل توسعه وتعميقه في الوقت الذي ازداد فيه الآخر في الغرب الأوروبي وفي جهات أخرى تقدماً وازدهار في جميع المجالات، وصلة الآخر بعالمنا صلة غالب بمغلوب، وقوي بضعيف، ومركز بأطراف وهي صلة يريدها الآخر أن تكون طبيعية دائمة ومستمرة، لذا ضرورة إعادة بناء العلاقة مع الآخر من خلال إعادة بناء التراث وإيجاد نظرية التفسير المحكمة للواقع، كلَ هذا في إطار مشروع قومي إنساني حضاري تاريخي هو مشروع «التراث والتجديد».

جاءت المحاولة في إطار محاولات إعادة بناء العلوم التراثية في الجبهة الأولى من أقسام العلوم النقلية العقلية والنقلية البحتة والعقلية البحتة، وعلم أصول الفقه يدخل ضمن العلوم النقلية العقلية، فالمحاولة الأصولية الفقهية جاءت بعد محاولة إعادة بناء علم الكلام ومحاولة إعادة بناء علوم الحكمة، وجاءت الرابعة هي محاولة إعادة بناء علوم التصوف في المصنف الصوفي المعاصر «من الفناء إلى البقاء» بجزئيه الوعي الذاتي والوعي الموضوعي، لقد جاءت محاولات إعادة قراءة وتفسير وصياغة وبناء العلوم التراثية وفق حاجات الواقع المعاصر ومتطلباته

وقضاياه ومشكلاته لتوظيفها في حل أزماته والعمل على تغييره وتطويره، وعلم أصول الفقه واحد من العلوم التراثية الهدف منه كما يرى «حسن حنفي» ويكتب «من النص إلى الواقع» للفقهاء لتحسين عملية الاستدلال، وإعطاء الأولوية للمصلحة العامة، وهي مصدر العملية التشريعية، بدل حرفية النص وتقديم الواقع على النص، ولما كان علم أصول الفقه التقليدي يُغلّب النص ولم يعد ينسجم مع المادة الفقهية في الواقع المعاصر، جاءت المحاولة لتحوّله إلى علم إنساني يحل مشكلات العصر ويسهر على تحسين الواقع وتغييره نحو الأفضل، فالمحاولة التجديدية تعمل على استنطاق النص الأصولي القديم بلغة العصر وفلسفته ومناهجه ليعبر عن تحدياته ومشكلاته ويسهم بفعالية وإيجابية في مواجهة التحدّيات وحلّ المشكلات المعاصرة، وتوفير شروط الانطلاقة الإصلاحية والنهضوية الحضارية.

٢ المنهج الظاهراتي رئيسي في «بنية النص»

المنهج السائد في التعاطي مع التراث يعيق تجديد التراث وتحويله إلى ذخيرة فردية وقومية تضطلع بإعادة بناء الإنسان انطلاقاً من الإصلاح، فالنهضة فالتنمية فالتقدم. وإذا كان الغرب الحديث ابتدأ نهضته العلمية من الواقع باعتباره مصدر الفكر الأول والأخير، فإن تراثنا جزء من الواقع حيث مازلنا نعيش بفكرة القضاء والقدر وثنائية الله والعالم وبتصور الكلي والجزئي في النظري على حساب العملي، وبالقيّم السلبية في التصوف مثل الصبر والتواكل والقناعة والتسليم، وتتشعب المناقشات في الفروع التي لا تغيّر شيئاً في الواقع. فالتراث ما زال حياً في شعور العصر ووجدانه، يمكن للتراث أن يؤثر في العصر ويكون محدداً وموجهاً للسلوك فيه، و«تجديد التراث إذن ضرورة واقعية، ورؤية صائبة للواقع، فالتراث جزء من مكونات الواقع وليس دفاعاً عن موروث قديم، التراث حي يفعل في الناس ويوجّه سلوكهم، وبالتالي يكون تجديد التراث هو وصف لسلوك الجماهير وتغييره لصالح قضية التغير الاجتماعي. تجديد التراث هو إطلاق لطاقات مختزنة عند الجماهير بدلاً من وجود التراث كمصدر لطاقة مختزنة... تجديد التراث هو حل لطلاسم القديم وللعُقد الموروثة وقضاء على معوقات التطور والتنمية والتمهيد لكل تغير جذري للواقع، فهو عمل لا بد للثوري من أن يقوم به.»[1]

وتجديد التراث لا يكون إلا بتحليله، وتحليل التراث هو تحليل للعقلية القومية المعاصرة

(١) المرجع نفسه: ص١٩.

وإظهار مكوناتها وعناصرها وأسباب ضعفها وتخلفها، وتحليل العقلية القومية المعاصرة وهي عقلية تراثية تاريخية فهو تحليل للتراث ذاته مادام التراث القديم مكوناً رئيسياً في العقلية المعاصرة، وهذا من شأنه يسمح برؤية الحاضر داخل الماضي ورؤية الماضي داخل الحاضر، فالتراث والتجديد في المشروع يؤسسان حسب «حسن حنفي» علما جديداً «وهو وصف للحاضر وكأنه ماض يتحرك، ووصف الماضي على أنّه حاضر معاش خاصة في بيئة كتلك التي نعيشها حيث الحضارة فيها مازالت قيمة، وحيث الموروث مازال مقبولاً... ولما كان التراث يشير إلى الماضي والتجديد يشير إلى الحاضر، فإن قضية التراث والتجديد هي قضية التجانس في الزمان وربط الماضي بالحاضر وإيجاد وحدة التاريخ... فلا يعني انتقال شعب ما من مرحلة إلى أخرى حدوث قطع أو انفصال حضاري بل يعني استمرار الحضارة ولكن على أساس جديد من احتياجات العصر، قضية التراث والتجديد هي إذن الكفيلة بإظهار البعد التاريخي في وجداننا المعاصر واكتشاف جذورنا في القديم... التراث والتجديد يمثلان عملية حضارية هي اكتشاف التاريخ وهو حاجة ملحّة ومطلب ثوري في وجداننا المعاصر. كما يكشفان عن قضية البحث عن الهوية عن طريق الغوص في الحاضر... عن طريق تحديد الصلة بين الأنا والآخر.»[1]

ومسألة تجديد التراث هي مسألة إعادة جميع الاحتمالات في القضايا المعروضة، وإعادة الاختيار حسب متطلبات الحياة في العصر الحاضر، «فلم يعد الدفاع عن التوحيد بالطريقة القديمة مفيداً ولا مطلوباً، فكلنا موحدون منزهون، ولكن الدفاع عن التوحيد يأتي عن طريق ربطه بالأرض، وهي أزمتنا المعاصرة.»[2] وإذا كان التشبيه أو التجسيم اختياراً قديماً غير مقبول، قد يحرك العقول والقلوب نحو الربط بين الله والأرض، بين الله وفلسطين. وإذا كان الفصل قديماً بين الله والعالم والإنسان جزء من العقل هذا الفصل يبرره الدفاع عن الإلوهية ضد الثقافات والفلسفات الأخرى، أما حال عصرنا مختلف فأصبحت المأساة هي التراث والتعاطي معه، فسيطرة الفكر الأشعري لمدة أكثر من عشر قرون وكان إحدى معوقات العصر آنذاك لأنه قام على التصور الرأسي للعالم لا التصور الأفقي الذي جعل البديل في الاختيار الاعتزالي الذي بلغت بوجوده الحضارة الإسلامية أوجها وقوتها لأنه الاختيار الذي يعبر عن حاجات

(١) المرجع نفسه: ص١٩ - ٢٠ - ٢١.
(٢) المرجع نفسه: ص٢١.

ذلك العصر ومتطلباته. وكان أكثر سلبية لمطالبه. «فالتراث والتجديد» «إذن هي إعادة كل الاحتمالات القديمة بل ووضع احتمالات جديدة واختيار أنسبها لحاجات العصر، إذ لا يوجد مقياس صواب وخطأ نظري للحكم عليها بل لا يوجد إلاّ مقياس عملي فالاختيار المنتج الفعّال المجيب لمطالب العصر هو الاختيار المطلوب. ولا يعني ذلك أن باقي الاختيارات خاطئة بل يعني أنها تظل تفسيرات محتملة لظروف أخرى، وعصور أخرى ولّت أو مازالت قادمة.»[١]

«من النص إلى الواقع» في جزئه الثاني «بنية النص» يتضمن متناً يتشكل من مقدمة وثلاثة أبواب. ومضمون المتن الأصولي في 'بنية النص' يدور حول 'بنية النص' ونشأتها وتطورها لا من الناحية النظرية بل النص الأصولي كتجربة شعورية، كتأسيس في الشعور، ويوضح المفكر طبيعة النص الأصولي في الجزء الثاني بقوله: «فإذا كان الجزء الأول هو وصف لنشأة النصوص الأصولية وتطورها لمحاولة التعرّف على بنيتها كبديل عن الفصول التمهيدية التاريخية التقليدية خارج النص فإن عنوان هذا الجزء يكون «تكوين النص» وإن كان الجزء الثاني يحاول إرجاع بنية النص الثلاثية إلى تجاربها المعاشة وأبعاد الشعور التاريخي والنظري والعملي، فإن عنوانه يكون «بنية النص». والتقابل بين التكوين والبنية قائم وهو الاختيار الذي تمّ بعد احتمال كان وارداً. وبالرغم أن لفظ النص يتكرر في الجزأين إلا أن الجزء الثاني دراسة لواقع النص في التجربة المعيشة كما يدل على ذلك العنوان.»[٢] فالنص الأصولي الذي يتضمن تأسيس العلم وبنيته وقسمة البنية، هو موضوع دراسة من خلال منهج تحليل المضمون ومناهج أخرى لمصنف أصولي معاصر هو الفريد في نوعه يسعى إلى قراءة علم أصول الفقه وإعادة بنائه وفق ما تقتضيه روح العصر وحاجاته وتحدياته، والجزء الثاني «بنية النص» يأتي بعد الجزء الأول «تكوين النص». «جاء الجزء الأول «تكوين النص» أقرب إلى الشكل منه إلى المضمون لمعرفة كيفية «تكوين النص» باعتبارها شكلاً. أما هذا الجزء الثاني «بنية النص» فهو أقرب إلى المضمون منه إلى الشكل لمعرفة بنية النص خارج الشكل وخارج اللّغة إلى بنية الشعور في علاقته بالعالم، فالشعور شعور بشيء، والوجود وجود في العالم... والنص الأصولي ليس نصاً صورياً خالصاً بل إنه يعبر عن تجربة شعورية حيّة عند صاحبه. ينشغل به في مقتبل العمر أو في آخره كنوع من المران. ويتم التصنيف فيه وفي غيره من العلوم مثل علوم التصوف في مرحلة

(١) المرجع نفسه: ص٢٢.
(٢) المرجع نفسه: ص٩.

أخرى من العمر.»[١] ولعل «حسن حنفي» يقصد فيما قاله تجربته مع التأليف الأصولي بصفة خاصة وإعادة بناء العلوم التراثية في مشروع «التراث والتجديد» بصفة عامة. لأنه يعتبر «من النص إلى الواقع» هو النص الأصولي في الأهمية والأولوية فيقول: «وتأتي أولوية «المستصفى» لأنه يمثل التراكم الأصولي حتى القرن الخامس ومن أجل بيان تطابق النص مع العقل وهو آخر ما دون الغزالي، والنص الأصولي الوحيد الذي لخّصه ابن رشد في «الضروري في أصول الفقه» وميزته الهدوء العقلي والاعتدال... إذ يقوم على تحليل العقل والنقل الخالص دون إحالة إلى مصادره. وربما تمَ الاعتماد فيه على الذاكرة الخالصة التي قوّتها علوم الذوق عن طريق الاستبطان. ثم تأتي أولوية «الموافقات» الذي يدل على التراكم الأصولي حتى القرن الثامن ويقوم على اتفاق النص مع المصلحة. وبالتالي يتم التوحيد بين النص والعقل والمصلحة أي بين الوحي والعقل والطبيعة. وهو الحدس الرئيسي للحضارة الإسلامية «المستصفى» و«الموافقات» هما النصان الرئيسيان التكوينيان قبل هذا النص الأصولي الثالث «من النص إلى الواقع».»[٢]

المنهج الظاهراتي أو منهج تحليل الخبرات هو منهج شعوري نفسي يعتبر النص الأصولي الفقهي تجربة شعورية حيةّ لدى صاحبه، فالرسالة تجربة شعورية حية عاشها الشافعي.

كما سبق لنا الذكر في التقديم جاءت المحاولة في مصنف أصولي معاصر بعنوان «من النص إلى الواقع» في جزئين «تكوين النص» و« بنية النص»، أما عن الجزء الأول «تكوين النص» تمّ مسح كشفي لحوالي ١٠٨ نص أصولي قديم بمنهج وصفي تاريخي، وإذا ما تحدثنا عن الجزء الثاني «بنية النص» قدم قراءة للنص الأصولي الكلاسيكي من منظور معاصر ومنهج ظاهراتي، يقول صاحب المحاولة في هذه النقطة « كانت النية أن يكون» من النص إلى الواقع «مجلدا واحدا لكن عزّ الطلب وانقسم الموضوع بطبيعته إلى قسمين، الأول لرصد النص الماضي تكوينا وبنية، والثاني لإعادة قراءته طبقا لروح العصر واكتشاف بنيته في تحليل الشعور.»

ردّ «التراث والتجديد» منهج الظاهريات إلى التراث لا إلى الوافد باعتباره منهجا فكريا وعلميا وفلسفيا إنسانيا ومناهج حالّة في جميع الحضارات، فالجزء الثاني «بنية النص» بطابعه

(١) حسن حنفي: من النص إلى الواقع، الجزء الثاني، ص٧.
(٢) المرجع نفسه: ص٩ - ١٠.

المادي الشعوري التجريبي النص الأصولي القديم لديه هو تجربة شعورية تتشكّل في الشعور لأن هذا الأخير هو شعور بموضوع ما على سبيل التواصل مع الموروث المحلي وليس من قبيل التأثر بالوافد الخارجي وهو «المنهج الظاهراتي»، يعتبر هذا المنهج جزء من «علم الإستغراب» أي تحليل التراث الغربي في إطاره التاريخي.

يؤكد صاحب المحاولة على التواصل بين الأصوليين وعلى الفكرة المتمثلة النص الأصولي تجربة شعورية حيّة فيقول « والزمن الأصولي تجربة شعورية معيشة عند الأصولي الحديث عندما يعيش النص ويعرف مدى دلالته للعصر، فالنص تجربة أصولية مشتركة بين الأصولي القديم والأصولي الحديث الذي يقوم بالقراءة وهو المؤلف لصالح قارئ ثان يئن من الفقه القديم الذي تضيع فيه مصالحه وتتعدد فيه أزماته، وإذا كان القدماء قد اتبعوا طريقتين في تدوين علم الأصول، طريقة المتكلمين وطريقة الفقهاء، فإن «بنية النص» تتبع طريقة المحدثين، تحليل النص باعتباره تجربة شعورية «من النص إلى الواقع» ط ج٢ ص: ٨.

من منطلق ظاهراتي فإن «بنية النص» تمثل تجربة شعورية حية عاشها ومازال يعيشها تحاول أن تربط النص الأصولي القديم كتجربة شعورية ماضية بالواقع المعاصر وبتحدياته ومتطلباته ومشكلاته، ليتحول النص الأصولي إلى علم إنساني يخدم الواقع بدل من أنه كان يهتم بالنص ويعالج قضايا عصرنا لا قضايا عصر آخر مضى، فيعطي الأولوية للواقع عى النص ويهتم بتحرر الأرض والإنسان واالعرض وتحقيق العدالة في توزيع الثروة والوحدة الوطنية والتنمية ويعالج موضوعات العصر العولمة، الهوية، الدمقراطية، حقوق الإنسان، المجتمع المدني... إلخ

٣- نتائج تطبيق الظاهراتية على علم أصول الفقه

أ- التجربة في التاريخ:

إنّ مضمون الباب الأول في «بنية النص» وحسب تحليل المستوى الشعوري وتحليل الوعي الأصولي هو الوعي التاريخي الذي يعني «استقبال الوعي في قنواته الإنسانية ومساره في التاريخ في التجربة الإنسانية العامة المطابقة لدى كل الشعوب (الكتاب) إلى التجربة النموذجية، التطبيق الأول لها في الزمان والمكان (السنة) إلى التجربة الجماعية في كل عصر (الإجماع)

إلى التجربة الفردية عبر العصور (الاجتهاد أو القياس). والوحي هو البيان أي الإعلان والتجلي والظهور والحضور. الكتاب البيان الأول، والسنة البيان الثاني والإجماع البيان الثالث والاجتهاد البيان الرابع.»[١] إن مكونات الوعي التاريخي لا تتعدد فهي ذات بنية رباعية يحددها اتجاه الوحي في التاريخ، «والعقل يدل عليها جميعاً. تأسيس الأصل الثاني في الأول. والثالث في الثاني والرابع في الثالث، ثم دلالة الثاني على الأول، والثالث على الثاني، والرابع على الثالث، ومن ثم يتأسس الأصل الأول على نفسه ويدل على نفسه لأنه لا أصل قبله يتأسس عليه ولا أصل سابق عليه يدل هو عليه.»[٢] وقد تُستنبط الأدلة من بنية ثلاثية 'أصل، معقول أصل، استصحاب حال'. وقد تستنبط الأدلة من بنية ثنائية أصل ومستنبط من الأصل. الأصل هو الكتاب والسنة والإجماع ومستنبط من الأصل هو القياس وكل أنواع الاستدلال، «كما تُستنبط الأدلة من طريقين: خبر ونظر أو قلب خطاب ومعنى. والخطاب يتدرج الكتاب والسنة والإجماع. وفي المعنى أنواع القياس والمفهوم من أنواع الخطاب وقد يقتصر الخبر على الكتاب والسنة.»[٣] كما تُستنبط المصادر الأربعة من بينية أحادية وهو الطريق العقلي الذي يؤكد أن العقل مصدر من مصادر التشريع. ويتداخل الوعي التاريخي متمثلاً في المصادر أو الأدلة الشرعية الأربعة مع الوعي النظري متمثلاً في طرق الاستنباط ومناهجه وقواعده. «وقد تُجمل الأدلة في تسعة عشر دليلاً، لا فرق بين الأدلة الشرعية الأربعة في الوعي التاريخي ولا مباحث الألفاظ في الوعي النظري ولا المقاصد والأحكام في الوعي العملي وهي: الكتاب، السنة، الإجماع، إجماع أهل المدينة، القياس، قول الصحابي، المصالح المرسلة، الاستصحاب، البراءة الأصلية، العادات، الاستقراء، سد الذرائع، الاستدلال، الاستحسان، الأخذ بالأحق، المصلحة، إجماع أهل الكوفة، إجماع العترة عند الشيعة وإجماع الخلفاء الأربعة... ويشمل القياس عشرة أنواع: المصالح المرسلة، والاستصحاب والبراءة الأصلية والعادات والاستقراء، وسد الذرائع والاستدلال والاستحسان، والأخذ بالأحق، والعصمة وقول الصحابي أقرب إلى التقليد. ثم يتم التركيز على المصلحة باعتبارها المصدر الأول للتشريع.»[٤] هذه المصادر بعضها محل اتفاق وبعضها موطن اختلاف عند الأصوليين.

(١) المرجع نفسه: ص٩٩.
(٢) المرجع نفسه: ص١٠٠.
(٣) المرجع نفسه: ص١٠٥.
(٤) المرجع نفسه: ص١٠٧.

ب- التجربة في العقل:

إنّ مضمون الباب الثاني في 'بنية النص' وحسب تحليل المستوى الشعوري للوعي الأصولي هو الوعي النظري الذي يعني «ملكة فهم الوحي بعد تلقيه من خلال القنوات الأربع، الكتاب والسنة والإجماع والقياس التي تكون مضمون الوعي التاريخي. ويعتبر عمدة علم الأصول لأنه هو الانتقال من الوعي التاريخي إلى الوعي العملي والذي يمثل قطب الاجتهاد فيه. وهو قائم على جهد الإنسان وإعمال العقل. لذلك تضخّم على حساب الوعي التاريخي والوعي العملي على حد سواء مما يدل على أولوية الفهم على التاريخ والفعل عند القدماء.»[1] ولما كانت أبعاد الفكر هي اللفظ والمعنى والشيء فإن الوعي النظري يشمل المنظوم أي اللفظ أو مباحث الألفاظ. والمفهوم أي المعنى أو فحوى الخطاب والمعقول أي الشيء أو مباحث العلة والمنظور وهو الاجتهاد. والمنظوم هو اللفظ أو البيان والبيان معاني قائمة في النفس يُعبَر عنه بالأصوات المقطعة والحروف المنظومة. والكلام مفيد أو غير مفيد، دال وغير دال، مهمل ومستعمل. وهو إخبار واستخبار وأمر ونهي. والمبادئ اللغوية هي السبيل إلى فهم الخطاب وإدراكه. وتسمى المباحث اللغوية عوارض الأدلة ' وهي: المحكم والمتشابه والإحكام والنسخ والأوامر والنواهي، والعموم والخصوص، والبيان والإجمال، وقد تدخل جميع مباحث الألفاظ في 'كتاب اللغات'. وكما تستنبط مباحث الألفاظ من اللفظ وما يفيده من معنى تستنبط من قسمة عقلية للأدلة أو من طريق تحديد صفة المكلف كونه عالماً يعرف القبح ويعرف الحسن. والمنظوم هو منطق اللفظ لمعرفة طرق الاستدلال بالصيغة من حيث اللغة والوضع. وقسمة مباحث الألفاظ كانت في أول الأمر رباعية النص والظاهر والمجمل والعموم وتحولت بعد ذلك إلى ثنائيات، الحقيقة والمجاز، الظاهر والمؤول، العموم والخصوص والمجمل والمقيد. «وقد تضخمت مباحث الألفاظ بحيث أصبحت أحياناً كل العلم. وقد سمي ذلك 'البيان' الذي يشمل كل مباحث الألفاظ مثل التفسير والتخصيص والاستثناء. وقد يدخل النسخ أيضاً كما تدخل السنة قولاً وفعلاً وإقرارا وقد تدخل كلها في موضوع واحد هي الألفاظ الواردة في الشرع.»[2]

---

(١) المرجع نفسه: ص٢٤٧.

(٢) المرجع نفسه: ص٢٦١.

ج- التجربة في الواقع:

إن مضمون الباب الثالث في 'بنية النص' وحسب تحليل مستوى الشعور واعتبار النص الأصولي تجربة شعورية هو 'الوعي العملي' الذي يدور حول المقاصد والأحكام. المقاصد مقاصد الشارع ومقاصد المكلف. والأحكام أحكام الوضع وأحكام التكليف. «وبعد أن ينتقل الوعي عبر التاريخ، المصادر الأربعة للشرع الكتاب والسنة والإجماع والقياس في الوعي التاريخي، وبعد أن يتم فهمه بالعقل. عن طريق مبادئ اللغة وبالمصلحة عن طريق إحصاء الواقع في الوعي النظري، يكون الوحي جاهزاً للعمل والتطبيق والدخول في العالم والتأثير فيه عن طريق الوعي العملي. والوعي العملي هو آخر ما تكوّن في بنية علم الأصول وبمسميات عديدة قبل أن يكمله الشاطبي في «الموافقات». في بنيته الثنائية، المقاصد والأحكام، ثم رباعية في مقاصد الشارع ومقاصد المكلف وأحكام الوضع وأحكام التكليف.»[1] والشريعة الإسلامية في جوهرها مقاصد ووسائل وأدوات وتتكون المقاصد من مقاصد الشارع ومقاصد المكلف ومقاصد الشارع أربعة أقسام هي: وضع الشريعة ابتداء، وضع الشريعة للإفهام، وضع الشريعة للتكليف، ووضع الشريعة للامتثال.

كما ترتب عن استخدام المنهج الظواهري في دراسة علم أصول الفقه وفي محاولة إعادة بناء علم أصول الفقه كعلم تراثي عقلي نقلي نتائج أخرى عديدة ابرزها ما يلي:

- القراءة الظاهراتية الحديثة والمعاصرة لعلم أصول الفقه، أي استخدام المنهج الظاهراتي أو منهج تحليل الخبرات كمنهج إنساني عرفته الحضارات والثقافات القديمة وليس كمنهج خارجي وافد ودخيل على الفكر العربي، والمنهج الظواهري كما عرفه الفكر الغربي الحديث هو منهج تحليل التراث الغربي.
- منطق لغوي جديد ومصطلحات جديدة أملاها المنهج الظاهراتي مثل: الوعي، والوعي الذاتي، التجربة الأصولية، الوعي العملي، المنظوم (اللفظ)، المفهوم (المعنى)، المعقول، المنظور...إخ.
- تغليب الواقع والمصلحة على النص وإعادة ترتيب الأولويات، فالوعي الأصولي

(١) المرجع نفسه: ص٤٨٣.

المتعدد والمتباين في مستوياته الشعورية منتهاه الوعي العملي ويتجسد في المقاصد والأحكام.

- تقديم علم أصول الفقه في المحاولة من منظور معاصر وربطه بالعلوم الإنسانية والاجتماعية في منهج دراسته، وهو متعدد ومتنوع، المنهج الظاهراتي أساسي ومناهج أخرى المنهج التاريخي، المنهج الوصفي، المنهج البنيوي، المنهج التأويلي، ومنهج تحليل المضمون وغيره).
- المادة الفقهية وتتمثل في الهموم والمشاكل والتحديات المعاصرة سياسيا اقتصاديا اجتماعيا فكريا وثقافيا، وفي الهدف توظيف علم أصول الفقه لحل الأزمات المعاصرة في العالم العربي والإسلامي باعتباره واحدا من العلوم الإنسانية.
- صياغة جديدة وبناء جديد وهيكل جديد لعلم أصول الفقه مستمد من مستويات الشعور الثلاثة (الوعي التاريخي والوعي النظري والوعي العلمي).

٤- نقد المحاولة الذاتي ومن الغير

انتقد «حسن حنفي» محاولته إعادة بناء علم أصول الفقه في مقدمة الجزء الأول من كتابه «من الفناء إلى البقاء» في التصوف وعنوانه - «الوعي الموضوعي» - من حيث الشكل والمحتوى واصفا إيّاها بالصورانية والشكلانية والتاريخية خالية من التجديد وبطغيان النص على الواقع، والهدف منها أولوية الواقع والمصلحة على النص، هل في هذا النقد تراجع أم تناقض أم تطور للمعرفة؟

لقد تعرضت المحاولة للكثير من الانتقادات، أركز على أهم ما جاء في نقد المحاولة من حيث استخدامها للمنهج الظاهراتي، وأذكر أربع نقاط هي:

١- يردّ مشروع «التراث والتجديد» المنهج الظاهراتي إلى التراث لا إلى الوافد ويستخدمه في محاولات إعادة بناء العلوم التراثية جميعا، ثم يبحث له عن مبررات وجوده في التراث العربي الإسلامي، ووجوده في التراث العربي الإسلامي عبارة عن تحليلات بسيطة ودلالات ساذجة لا ترقى إلى حالته الحديثة والمعاصرة في الفكر الغربي.

٢- الرؤية الفلسفية الفينومينولوجية الحديثة تمزج بين الذات والموضوع فيغيب الانفصال

بينهما، وهي رؤية تطورت في عصرنا وارتبطت بمناهج أخرى، وأحيانا يحتاج البحث إلى فصل الموضوع عن الذات عندما يتعلق الأمر بحقائق علمية دقيقة ثابتة وموضوعية.

٣- المنهج الظاهراتي لا يعطي أهمية إلى تاريخية النص ولا إلى بنيويته، ويركز على ما يراه الباحث انطلاقا من تجاربه الشعورية الشخصية الحيّة ومما يؤمن به ومن تأويلاته، فتتغلب عليه الذاتية والقصدية، وتحكم نتائج البحث الخصوصية والتغيير والتنوع والاختلاف في الفكر وفي الفهم وفي التفسير، أما المنطق العلمي الاستدلالي الاستنباطي الاستقرائي وحتى التمثيلي يرفض التغيير المطلق ويقرّ بالوحدة.

٤- المحاولة في المشروع حسب البعض تخلط بين الأيديولوجي والديني والعلمي، الأيديولوجي المتمثل في اليسار الإسلامي فكريا والإسلام السياسي التنويري سياسيا، وتحوي الدين والأيديولوجيا إلى علم أمر صعب جدّا، وتحقيق الأهداف المنشودة من التراث والتجديد وفي المحاولة ليس بالأمر الهين.

إنّ الدراسة النقدية لمحاولة إعادة بناء أصول الفقه عند 'حسن حنفي' هي جزء من الدراسة النقدية للفلسفة ولمشروع 'التراث والتجديد' لأن محاولة إعادة بناء أصول الفقه هي جزء ضمن إعادة بناء التراث القديم في جانب العلوم العقلية النقلية الأربعة، علم أصول الدين وعلوم الحكمة وعلم أصول الفقه وعلوم التصوف. وسائر الانتقادات التي توجه إلى أسس ومناهج وخصائص 'التراث والتجديد' والفلسفة التي يقوم عليها توجه إلى محاولات إعادة بناء التراث القديم ومنها محاولة تجديد الفقه وأصوله وهي مجازفة ومغامرة إذ «يرى برانشفيك أنه لأول مرة في تاريخ الفكر الإسلامي يحاول صاحب هذه الدراسة خوض مغامرة كبرى، تتمثل في محاولة إعادة تفسير كامل لعلم أصول الفقه التقليدية، وذلك انطلاقا من رؤية فلسفية جديدة، توظف الإمكانيات الحديثة في التحليل والفهم، والتي لم تكن متاحة للعلماء من قبل، مشيرا بذلك إلى محاولة المؤلف توظيف أسس 'الفينومينولوجيا' التي كانت لا تزال تحتفظ في ذلك الوقت بنفوذ على الساحة الفلسفية.»[1]

إن كتاب 'حسن حنفي' 'من النص إلى الواقع' في جزئه الأول 'تكوين النص' أراد أن يحدد أساس علم أصول الفقه من خلال تحليل نظري صوري للنصوص الأصولية، ووصف شكلاني

(١) عبد الحميد الصغير: الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام، ص٢٩.

لبنية العلم في أكثر من مائة نص أصولي في غياب التاريخ والظروف التاريخية التي نشأت فيها النصوص وتكونت، ونشأ فيها العلم وازدهر. وفي غياب الأيديولوجيا كمعنى مرتبط بالأحداث السياسية والاجتماعية، هو ما جعل البحث يعتمد على الفكر التأملي من خلال استخدام منهج تحليل المضمون، معترفا أن الأفضل في دراسة النصوص «تتبع نشأة النص الأصولي وتطوره بصرف النظر عن المذاهب الفقهية والنص الأصولي واحد أسّسه الشافعي وإن لم يكن أول الفقهاء.»[1] وعرف وصف النصوص الأصولية في متن الجزء الأول في 'من النص إلى الواقع' التكرار والحشو وطول الشرح من نص إلى آخر وفي النص الواحد وكان 'حسن حنفي' قد عاب على الكثير من الأصوليين طول الشرح والتكرار في كتاباتهم. أما في الجزء الثاني فقد تناول بنية علم أصول الفقه الثلاثية من منظور ظاهراتي بحت مستخدما التجديد اللغوي وداعيا إلى تغيير البيئة الثقافية وهي مناهج التجديد في مشروع 'التراث والتجديد'. بالنسبة للمنهج الفينومينولوجي فإن إعادة بناء علم أصول الفقه على منظوره ورؤيته جعل الوحي وهو معطى قبلي سماوي عملية إنسانية وتجربة فردية يتحكم فيها الواقع الإنساني، هي مطالبة بالنزول إلى الواقع الإنساني والتكيّف مع حاجياته ومطالبه مهما كانت، ويتحول الوحي إلى علم إنساني فلسفي عملي سلوكي يندمج مع سائر العلوم الإنسانية والاجتماعية يهتم بالإنسان وبظروفه وبمصالحه الفردية والاجتماعية وبالأمة وبمصالحها ويواجه التحديات في الواقع العربي الإسلامي المعاصر، لكن ارتباط المحاولة ببعض التصورات الفلسفية القديمة والحديثة مثل الاتجاه العقلي الاعتزالي والاتجاه الفلسفي الظواهري ورد الفكر الأصولي القديم ومنهجه إلى فكر علمي تجريبي اجتمعت فيه كل من خصائص ومقومات الروح العلمية بالمعنى الحديث والمعاصر ورد الوحي إلى الواقع من خلال اعتماد مبدأ أولوية الواقع على النص، والعمل على النظر، واللغة على الفكر، والمصلحة على الحرف، والتاريخ على الوحي، والإنسان على الله كل هذا جعل المحاولة تتأسس على طرف واحد يمثلها كل من الواقع والمصلحة في مقابل الوحي كمعطى قبلي وسابق على الفكر لهذا كانت المصلحة أساس التشريع والواقع معتبرا في الشريعة فلأن الوحي هو الذي قرر ذلك. واعتبار الوحي للواقع والمصلحة والعمل لا يعني أولوية الواقع على النص والمصلحة على الحرف والتاريخ على الوحي فكثير ما تُطلب الفضيلة لذاتها، وكثيرا ما يضحي الإنسان بما هو أصلح له في الواقع في سبيل مبدأ وقيمة روحية لا على

(١) حسن حنفي: من النص إلى الواقع، ج١، ص٢٥.

سبيل المثالية بل على سبيل أولوية الوحي على الواقع والآخرة على الدنيا والله على الإنسان والمبدأ على الرغبة.

إن الدلالات والإيحاءات التي تميزت بالجدّة في محاولة تجديد علم أصول الفقه لم ترد فقط في كتاب 'من النص إلى الواقع' الذي تضمن محاولة إعادة بناء أصول الفقه، من خلال قراءة النصوص الأصولية القديمة ومتونها المتعلقة بنشأة وتكوين بنية علم أصول الفقه في الجزء الأول 'تكوين النص' ومن خلال إعادة صياغة بناء علم أصول الفقه كتجربة شعورية في الجزء الثاني من 'بنية النص' وفق منظور حديث ومعاصر هو التحليل الشعوري الظاهراتي ومنطق التجديد اللغوي والحرص على تغيير البيئة الثقافية من بيئة قديمة إلى بيئة جديدة وهي البيئة الثقافية المعاصرة. وجاءت تلك الدلالات والإيحاءات والتحليلات متناثرة في كتب 'حسن حنفي' مثل 'حصار الزمن' 'مفكرون' و'حصار الزمن علوم' و'هموم الفكر والوطن' وحوار الأجيال وغيره. وكل هذه الدلالات والإيحاءات والتحليلات قابلة للمناقشة، ففي 'بنية النص' الذي تضمّن معظم هذه الدلالات والإيحاءات نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ونناقشها. فالجمع بين الطابع الاستدلالي لمصادر التشريع الإسلامي الأربعة بالمكان والزمان من خلال أسباب النزول والناسخ والمنسوخ على أساس الواقع يسأل والوحي يجيب واعتبار السن نموذج الوحي المتحقق في الواقع والشريعة في المجتمع والنبوة في الدولة كل جمع بين ماهو علمي استدلالي استقرائي واستنباطي وبين ما هو سياسي واجتماعي خاضع للتغيير والتبديل فالنبوة ليست علما والوحي لا يصبح علما من العلوم الإنسانية والاجتماعية المستحدثة. ولا يمكن الفصل في القياس بين كونه جانبا تعبديا وقناة أولى تُدخل الوحي في التاريخ ويكون القياس عنصرا في الوعي التاريخي وبين كونه أداة استدلالية تمثل عنصراً أساسيا في الوعي النظري، فالقياس واحد لأن الوحي واحد والعقل واحد والواقع واحد. واهتمام البحث بأسباب النزول والناسخ والمنسوخ أي (المكان والزمان) ليس فيه جديد سوى لرد الوحي إلى الواقع من خلال ظاهرتي التنزيل والنسخ وتحكيم المصلحة على النص والنظر على العمل والأرض على السماء. فالوحي في أصول الدين وأصول الفقه توقيف يتعلق بفهم المصادر وكيفية الاستنباط وفي الفقه وأصوله يوجد ماهو ثابت وما هو متغير. فالثابت هو الفطرة والمتغير هو الواقع والعقل يقرأ الوحي والواقع ويجمع بينهما، قد يتحقق الوحي في الواقع بواسطة العقل ويتحول الواقع إلى وحي بواسطة الفعل.

أما المنهج الظاهراتي الذي يبحث عن بنية النص خارج النص في التجربة الإنسانية المعيشة ففيها لا فرق بين الفكر والواقع، بين اللغة والوجود، بين التصور والأفق نجد هنا مبالغة في اعتبار اللغة والوجود شيئا واحدا والفكر والواقع موضوع واحد. في حين أن الواقع يؤكد أن هناك تباين بين الوقائع والتصورات واللغة شيء والوجود شيء آخر حتى أن اللغة الظواهرية في 'بنية النص' مثل المنظوم والمنظور والمفهوم والمعقول وغيرها مفاهيم تتكرر في مباحث العلم ويمكن الاعتراض عليها. فالمعقول وهو الشيء ويشير إلى القياس يتكرر في المنظور الذي هو الاجتهاد والقياس ضرب من الاجتهاد والوعي النظري يتداخل مع الوعي العملي، التجربة الفردية والمنظور والمعقول وحتى المفهوم فصياغة علم أصول الفقه اللغوية الظواهرية في 'من النص إلى الواقع' يمكن أن تصاغ في أكثر من صياغة، حتى أنّ صاحبها إذا راجعها ربما يصيغها في أكثر من صورة. وفكرة الأولوية في ترتيب الأدلة للواقع على النص بحيث يتمّ الانتقال من القياس فالإجماع فالسنة فالكتاب وهو منهج عكسي بالنسبة للمألوف لدى الفقهاء حيث يتم الانتقال من الكتاب فالسنة فالإجماع فالقياس واستساغة الترتيب الجديد للأدلة ليس أمراً سهلاً رغم ما فيه من معقولية وواقعية، بحيث أصبح الواقع مقدسا والوحي في خدمته وهو أمر يعترض عليه علم الأصول القديم ومناصروه. والفصل بين أصول الدين وأصول الفقه في أكثر من مبحث يخالف ما درج عليه الفكر الإسلامي من ارتكاز أصول الفقه على العلوم الأخرى واستمدادها منها مثل أصول الدين وعلوم الحكمة وعلوم الحديث وغيرها. ولا يعني ارتباط أصول الفقه بالواقع والحرص على أولوية الواقع على النص فيه هو الحرص على تجريده من كل بحث في علم التوحيد والفلسفة، وحتى التصوف فالعلوم الإسلامية متكاملة لأن الإنسان ليس هو مجرد واقع أو مصلحة بل عقل وروح وفكر وذوق وفناء.

إن كافة الدلالات التجديدية التي عرفتها محاولة إعادة بناء أصول الفقه في الجزء الأول أو في الجزء الثاني من الكتاب 'من النص إلى الواقع' فلسفيا ومنهجيا ولغويا وأيديولوجيا وتاريخيا في الوعي التاريخي بكافة مصادره وقنواته وفي الوعي النظري بجميع أقسامه وعناصره وفي الوعي العلمي بكافة جوانبه وقضاياه إنما الهدف منها هو تحويل علم أصول الفقه من علم فقهي منطقي استدلالي استنباطي إلى علم فلسفي إنساني سلوكي موجه مباشرة إلى خدمة مصالح الإنسان في الواقع. ينطلق من الواقع وتحدياته ومشكلاته وحاجياته وأسئلته ويعود إليه بالإجابة على تلك الأسئلة وبمواجهة تلك التحديات وتحقيق تلك الحاجيات وتلبية المطالب

عملاً بمبدأ أولوية الواقع على النص والمصلحة على الحرف والعمل على النظر والتاريخ على الوحي والأرض على السماء. على عكس ما كان عليه الفكر الأصولي ومنهجه في القديم من إعطائه الأولوية للنص على الواقع وللوحي على المصلحة والتاريخ والإنسان والأرض. لذلك سخّرت المحاولة التراث ككل لخدمة الواقع كما سخّرت ثقافة العصر وعلومه «التجديد» لنفس الغرض، فلم ترض التيار السلفي الذي يعتبرها محسوبة عليه تعسفا، ولم ترض في الوقت نفسه التيار العلماني الذي يعتبرها محسوبة عليه تعسفاً. وهي محاولة ترضي صاحبها الذي لم يعلن يوما عن سلفيته أو عن علمانيته، وتبقى محاولة تتميز بالجرأة والجدية والأهمية في الحياة الثقافية والفكرية العربية الإسلامية المعاصرة.

خاتمة

إنّ محاولة إعادة بناء علم أصول الفقه في مشروع «التراث والتجديد» اتخذت مناهج عدة بما فيها المنهج الظواهري الطاغي على المشروع ككل، وهو منهج نما وازدهر في الفكر الغربي الحديث والمعاصر، وانتقل إلى الثقافة العربية وإلى الفكر العربي كغيره من المناهج الفكرية والفلسفية الحديثة نقدية ولغوية وتحليلية وتأويلية وغيرها.

المحاولة قيّمة فيها التراث وفيها التجديد كلاهما موضوعان جديران بالاهتمام دراسة وتحليلا ونقدا وتطويرا وتجديدا وعرضا على الواقع، وتطوير وتجديد المحاولة مهمة الأجيال اللاحقة وهي حاجة ضرورية لأن المجتمع العربي الإسلامي المعاصر يحيا بالتراث ولا يمكنه التفريط فيه. تمثل هذه الدلالات والإيحاءات الجديدة في محاولة إعادة بناء أصول الفقه القديم تجديدا لأصول الفقه من منظور فلسفي وعلمي معاصر يهدف إلى تحريك أصول الفقه في عصرنا ليتحوّل من علم فقهي منطقي استنباطي إلى علم فلسفي إنساني سلوكي إلى جانب العلوم الإنسانية اللغوية والنفسية والاجتماعية يخدمها وتخدمه، ويخدم مصالح الإنسان الفردية والاجتماعية في الواقع المعاصر على أساس أولوية الواقع على النص وليس العكس الذي كان يسيطر على الفكر الأصولي الكلاسيكي ومنهجه. ويتحرر الفقه وتتحرر أصوله ومقاصده من المباحث الجدلية والفرضية والكلامية والفلسفية وهو ليس خاصا بالأمة الإسلامية بل يمكن الانتقال به إلى أصول الفقه المقارن والمطلق يجمع بين ما هو مشترك وعام بين علوم أصول الفقه في الحضارات المختلفة في الشرق والغرب، فيُوضع علم جديد يفصل في العلاقة بين الوحي

والعقل والواقع. وإن كان التجديد حاضرا في المحاولة فلسفيا ومنهجيا ولغويا وثقافيا ومادة وكل ذلك في دلالات وإيحاءات جديدة وإن لم يكن هناك تجديد في القواعد والبناء. والتجديد هو عبارة عن إبداع في القراءة، وإبداع في صياغة، وإبداع في إعادة البناء، لأن الإبداع لا يقوم في العدم بل ينطلق دوما من القديم فيجدده وعند استقلال تجديد القديم يصبح هذا الأخير إبداعاً، ومحاولة 'حسن حنفي' هي تجديد القديم يصبح إبداعا إذا تلتها خطوات أكثر جدّة وأكثر عمق وأكثر جرأة، وهي مهام جسام يضطلع بها الكبار.